

جذور التشيع في المغرب الغربي

• السيد أحمد الفاطمي (الجزائر)

كان وصول إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب (ع) إلى بلاد المغرب فراراً من تعقب العباسيين بعد موقعة فخ، أول اتصال لأهل هذه البلدة بسلالة أهل البيت فقد لقيت هذه الشخصية الترحاب والحماية من طرف السكان المحليين الناقمين على التصرفات غير الإسلامية للولاة الأمويين والعباسيين إلى أن تم تأسيس الدولة الإدريسية التي وإن كانت قد قامت على أسس علوية إلا أنها كانت تعبيراً عن حدث سياسي طارئ أكثر منه انقلاب فكري أو أيديولوجي بينما بدأت الدعوة لأهل البيت في بلاد المغرب رسمياً بقدوم مبعوثي الإمام جعفر الصادق (ع) إلى هذه الديار.

حسب ما جاء في أقدم وثيقة تؤكد ذلك وهي كتاب افتتاح الدعوة للقاضي النعمان: (قدم إلى المغرب في سنة خمسة وأربعين ومائة رجلاً من المشرق قيل أن أبا عبد الله جعفر بن محمد صلوات الله عليها بعثهما وأمرهما أن يتجاوزا إفريقيا إلى حدود البربر ثم يفترقان فيترل كل واحد منهما ناحية، فلما صارا إلى مرماجنة (بلد بالقرب من مدينة تبسة بالجزائر) نزل أحدهما وكان يعرف بأبي سقيان لها بموضع يقال له تالا فابتنى مسجداً.. وكان له الفضل والعبادة والذكر في الناحية ما قد اشتهر به ذكره، وكان أهل تلك النواحي يأتونه ويسمعون فضائل أهل البيت (ع) ويأخذونها عنه، فمن قبله تشيع من تشيع وكان له في الفضل والعبادة أخبار كثيرة وأما الثاني فكان يعرف بالحلواني وأنه تقدم حتى وصل إلى سوجهار فترل منه موضعاً يقال له الناظور فبنى مسجداً.. وكان في العبادة

والفضل والعلم علماً في موضعه، فاشتهر به ذكره وضرب الناس من القبائل إليه وتشيع كثير منهم على يده، وكان يقول لهم بعثت أنا وأبو سفيان فليل لنا اذهبا إلى المغرب فإنكما تأتيا أرضاً بوراً فأحرثاها وأكرباها وذللاها إلى أن يأتي صاحب البذر فيجدها مذلة فيبذر حبه فيها، فمات أبو سفيان بمراجنة وقبره بها يعرف مكانه ومكان مسجده إلى اليوم.. وعاش الحلواني طهراً طويلاً ومات بالناظور من أرض سوجمار وشم قبره ومسجده) كتاب افتتاح الدعوة القاضي النعمان ص ٢٦ - ٢٩. انتهى كلام القاضي النعمان.

أما ثالث الرسولين فقد كان يدعى أبو عبد الله واسمه الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا وكان من أهل الكوفة، كان قد أرسل منها إلى المغرب معرجاً على اليمن حيث التقى بها بأبي القاسم داعي اليمن وأبو القاسم هذا حسب رواية القاضي النعمان كان من أهل الكوفة من أهل بيت علم وتشيع وكان قد قرأ القرآن وطلب الحديث والفقه، وكان ممن يذهب إلى مذهب الإمامية الاثني عشرية أصحاب محمد بن الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) الذين كانوا يرون أنه المهدي وأنه يظهر، ويكون من أمره ما يكون على ما جاءت به الأخبار عن رسول الله (ص)^(١) وعن هذا الأخير أخذ الداعي (داعي المغرب) أبو عبد الله التعليمات والوصايا فامثل وذهب حيث أمر.

كان هؤلاء الثلاثة دعاة يبشرون بالمهدي المنتظر ويدعون إلى حب أهل البيت (ع) ويحثون الناس على طاعتهم وولايتهم مما نتج عنه تعلق العامة بفكرة المهدي والولاية خاصة وأن الدعوة كانت تمس كافة طبقات المجتمع إضافة إلى ما كان من تدمير الشعب من تعسف الولاة وجورهم، وهكذا بذر أبو عبد الله الذي عرف فيما بعد بالصنعاني البذور الأولى للمذهب الشيعي بالمغرب والتي نتج عنها حب العامة لأهل البيت (ع) وتعلقهم بفكرة المهدي المنتظر (نزل أبو عبد الله بايكجان - بلدة بالجزائر - فأقام بها فأقبل الناس إليه من كل ناحية وتسامعوا به فكان يجلس لهم ويحدثهم بفصائل الإمام علي (ع)^(٢) وهكذا تم نشر فضائل أهل البيت (ع) بين أوساط الجماهير إلى أن ترسخ الأمر للمذهب الشيعي بعد أن استولى على عقول الناس وقلوبهم في طول بلاد المغرب وبتأسيس الدولة الفاطمية أضحي المذهب الشيعي هو المذهب السائد في هذه البلاد.

(١) نفس المصدر ص ٤ انظر حديث الخلفاء اثني عشر أخرجه البخاري في صحيحه ج ٩ ص ٧٢٩ وأخرجه مسلم في صحيحه ج ٣ ص ١٤٥٢-١٤٥٣.
(٢) افتتاح الدعوة للنعمان ص ٤٩.

فقرنت خطبة الجمعة في كافة مدن المغرب بالصلاة على محمد وعلى آله -علي أمير المؤمنين، الحسن، الحسين، وفاطمة الزهراء- (صلوات الله عليهم أجمعين، وأذن بجي على خير العمل)^(١) وإذا كانت الشيعة قد عملت على تمهيد سكان المغرب بجهود دعاها الأوائل إلى الفكر الشيعي وتحريك الجماهير وحققت في ذلك نجاحاً كبيراً وانتشاراً واسعاً أكثر مما حققته الفرق الدينية الإسلامية الأخرى فإننا نجد أن هذا النجاح على المستوى السياسي لم يعمر طويلاً وذلك بذهاب الأمراء الفاطميين من المغرب إلى مصر حيث أسسوا قاعدة جديدة لسلطتهم وانقلاب الولاة الصنهاجيين والزيريين وارتدادهم بإيعاز وتشجيع من الخلفاء العباسيين ببغداد، فقام المعز ابن باديس الصنهاجي بإصدار عدة أوامر وتعليمات مسّت الأمور الدينية والعقائدية وبطبيعة الحال لم يتم ذلك عن طريق الدعوة والإقناع بل أجبر الناس بالقوة على ترك المذهب الشيعي واعتناق المذهب المالكي وذلك عبر مذابح جماعية راح ضحيتها الشيعة الموالون لأهل البيت، وقد حفظت لنا كتب التاريخ عدة شهادات على ذلك^(٢)، ننقل منها شهادة لأحد المؤرخين المغاربة المالكيين وهو ابن دينار القيرواني في كتابه -المؤنس في أخبار إفريقية وتونس-.

«وقتلوا جماعة من الشيعة لأنهم كانوا يتجاهرون بمذهبهم الخبيث فقتلت نسائهم وأولادهم وكانت فتنة في القيروان من أجل النهب والقتل، ولجأ طائفة منهم بالجامع في المهدية فقتلوا فيه وكان لا يرى في القيروان أحد منهم إلا ضرب عنيفاً وربما قتل وأحرق^(٣)».

لكن هل أن تلاشي المذهب الشيعي سياسياً في بلاد المغرب وهل أن حيولة الدول والحكومات المتعاقبة إلى عهد العثمانيين دون ترك الجماهير تعبر عن ولائها لأهل البيت (ع) يعني أن التشيع قد انتهى أمره وأنه قد تلاشى فكرياً؟ إننا من خلال نماذج سنقدمها في إطار هذا البحث سنرى أن الشيعة وإن لم تستطع أن تحل مكانها كمذهب سياسي في المغرب إلا أنها تركت آثاراً قوية في التفكير الشعبي حيث نجد هذه الآثار والرواسب في القصة الشعبية والشعر والعادات والتقاليد.

أما على مستوى القصة فنجد واضحاً فهي ترمي إلى تفضيل أهل البيت (ع) على غيرهم وفي طبيعتهم الإمام علي (ع) الذي يأخذ مكاناً واسعاً في القصة والخيال الشعبي، وهكذا يصبح الإمام علي رمزاً للبطل الباسل الذي يتمتع بقوة عجيبة و طاقة خارقة للعادة

(١) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذارى المراكشي ص ١٥١.

(٢) المصدر السابق ص ٢٧٣ وفيات الأعيان لابن خلكان ص ٣٢١ ج ٤.

(٣) المؤنس في أخبار إفريقية وتونس لابن أبي دينار القيرواني ص ٨٢.

تمكّنه من قطع المسافات بسرعة وميض البرق ليأتي من غابر الزمان مدافعاً عن الأمة الإسلامية حين تتعرض لأزمة خطيرة توشك أن تقضي عليها فلا يهزم أبداً في محاربة الإنس والجن ويتفوق في ذلك كله على سائر الناس حيث يمكنه أن يخرج من عهود التاريخ السحيقة منتصراً للحق والعدالة^(١) وتجدر الإشارة إلى أن الإمام علي (ع) يحتل دائماً مكان الصدارة في القصة البطولية الدينية، وذلك ما يمثل أهم الميول الشيعية الظاهرة في القصص الشيعية الجزائرية على سبيل المثال كما هو الحال في الغزوات التي تناول رواجاً كبيراً وحتى الآن في الأوساط الجزائرية وفي طليعة هذه الغزوات، غزوة وادي السيسبان حيث يظهر الإمام علي (ع) الرجل الفذ والمجاهد الوحيد الذي يقدر على نجاة الأمة الإسلامية المحصورة في المدينة المنورة فيسمع نداء الرسول (ص) الذي ناداه من المدينة المنورة فبينما كان الإمام علي في منزل عمته عاتكة في مكة المشرفة ثم يستطيع أن يصل إلى المدينة بعون الله وحده (فودّع عمته عاتكة) وسار إلى موضع الماء فتوضأ وصلى ركعتين ورمق بطرفه السماء وقال: «اللهم إني أسألك يا مولاي بأسمك المكنون الذي هو بين الكاف والنون أن تقرب لي كل بعيد وتقوم علي كل صعب شديد».

فما استتم دعائه إلا وهو داخل من باب المدينة المنورة حيث استطاع قهر أعداء الإسلام أما صيحته فهي مشهورة وإذا صاح في القتال دوت الأرض لصيحته وأجابه الجبال، وجواده (سرحان) أسرع من البرق^(٢).

وتروي أيضاً قصص عجيبة حول قبر الإمام وفيها تأثيرات قوية لتلك العقيدة التي تدعي أن الإمام لم يميت إذ يقال أن بعض الناس شاهدوا القبر وهو مفتوح والإمام فيه جالس أبيض الرأس واللحية وأخرى تروي بأن الإمام في قبره لم يذهب من جسده شيء وكفنه صحيح وإذا كان الإمام علي في الغزوات البطل المختار الذي يذود عن الأمة فكذلك يعتبر الوصي وابنه من بعده، فقاتله عبد الرحمن بن ملجم قد مات على يد الحسن بن علي في القصة الشعبية الذي ضربه ضربة بالسيف فقسمه نصفين فترلت عليه النار من السماء فحرقته حتى صار فحمة سوداء وعجل الله بروحه إلى النار ويقال إن الله سلب عليه طائراً يأكله ويتقيأه إلى يوم القيامة.

أما مأساة الحسين في واقعة كربلاء فلا زالت تسرد في مجالس تعقد يوم عاشوراء في أماكن متفرقة -بيوت، مساجد، زوايا، وحتى في المقاهي- مقرونة بمشاعر الأسى والحزن بل والغضب والرغبة في الانتقام.

(١) القصة الشعبية الجزائرية ذات الأصل العربي لروزلين ليلي قريش ص ٦٤-٦٦.

(٢) المصدر السابق ص ٥١١.

فيقول الراوي: ويقول سيدنا الحسين لمن كان يقترب منه كي يأخذ رأسه وهو مجروح: من اجتمع رأيهم على قتلي يدخلون النار من أجلي ومن يشاركني في القتال فهو معي في الجنة) فهو سبط النبي الرسول المحبوب المختار. وتروي قصة وفاته -استشهاده- أنه لما ضربه شمر اللعين ليأخذ برأسه طار رأسه من جسده فاهتز العرش وبكت الملائكة وأرسل الله على الناس عاصفة وظلمة عظيمة وظنوا أنهم أحيط بهم.

ويقال أيضاً: إن حمرة ظهرت في السماء يوم عاشوراء حين قتل الحسين فلا شك أن هذه الصورة لها أثر قوي وبعيد المدى في جعل الحسين بمرتلة خاصة إذ اهتز العرش نفسه لما أصيب بالضرر، ثم تروي لنا القصة أن الرسول (ص) قد أتى وعن يمينه الحسن وعن شماله علي ومن وراءه فاطمة الزهراء فقال اشهد يا أبي آدم ويا أخي نوح ويا إبراهيم ويا أخي موسى ويا أخي عيسى على ما فعلت أمي من بعدي بالحسين المصدر السابق ص ١١٦.

والجدير بالذكر أن أسماء يزيد ومرترقته دائماً ما تقرن باللعن سواء من طرف الراوي أو من طرف المستمعين وعلى العموم كان لهذه الحادثة المؤلمة أثراً قوياً وبعيد المدى في القصص الشعبي وأصبح رويداً رويداً يكتسي ثوباً عجباً بقدر ما أخذت القصة الشعبية تتباعد عن الزمان والمكان حيث وقعت حقيقة لكن مظاهرها العجيبة تعتمد على قاعدة ثابتة بنيت عليها هي القاعدة التاريخية.

وعلى ذكر مأساة كربلاء في يوم عاشوراء لا بأس أن نعطي نماذج أخرى من نماذج التأثير الإسلامي الشيعي في المجتمع المغربي عامة والجزائري بصفة خاصة حيث نجد مثلاً أن هذا اليوم لازال إلى اليوم يكره فيه العمل وأن السعي فيه يورث الرعدة وأنه لا يجب النظر إلى المرأة بل إن الشهر القمري في التقويم البربري -الأمازيغي في منطقة إيليزي بأقصى الجنوب الجزائري المقابل لشهر محرم يسمى بالبربرية- أبركان- أي الشهر الأسود ولا زالت قبائل الأعراب بسهوب الجزائر والتي قدمت مع هجرة بني هلال لا زالت تعلق الشارات السوداء على خيمها بحلول هذا الشهر حدادا على مقتل أبي عبد الله الحسين (ع) أما أسماء أهل البيت (ع) فهي أحب الأسماء وأكثرها انتشاراً بهذه الديار ويضاف إلى اسمي أحمد وعلي كلمة -سيد- فيقال سيد أحمد وسيد علي.

وتضع الأم أصابع كفها الخمسة على رأس وليدها تبركاً وتيمناً بالخمسة الأطهار من أصحاب الكساء الواردة أسماؤهم في حديث الكساء المشهور -محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين صلوات الله عليهم-.

وكثيراً ما تسمع عبارة «خمسة وجبريل» للحفظ من العين، وتعلق الكف التي تدعى بكف فاطمة أيضاً علي صدر الرضيع وعلى عتبة الباب وفي المحلات والسيارات أما السيدة فاطمة التي تدعى محليا -لا لا فاطمة الزهراء- فهي كما قال الشاعر الشعبي واصفاً إياها: «فاطمة البتول.. طب القلب المعلوم»

فهي فعلاً دواء للقلوب وشفاء للصدور ورمز للعفاف والقداسة والطهر يذكر اسمها اثناء هبوب زوابع الرياح بالصحراء لتحويل اتجاهها! وتتوسل المرأة حين يتعسر عليها الوضع باسم الإمام فتنادي يا علي! أما احترام الجماهير للأشراف ممن انتسبوا للدوحة الهاشمية العلوية فلا مثيل له فيخاطب الشريف بسيدي أو مولاي ويتنافس الناس في إكرامه وإرضائه حباً وكرامة لآل البيت (ع) ولا ننسى في الأخير أن لسكان هذه المنطقة علاقة قري بالأئمة الأطهار (ع) فإذا كان أهل فارس يفخرون مثلاً بأن تكون الأميرة شهربانو زوجة الإمام الحسين (ع) وأماً للإمام زين العابدين (ع) فتحق لسكان المغرب البربر أن تكون حميدة البربرية زوجة للإمام جعفر الصادق (ع) وأماً للإمام موسى الكاظم (ع).

وهكذا نصل في النهاية إلى أن ذاكرة الشعوب لا تمحى وأن الرواسب تبقى ما دام الأمل يراود الجماهير، هذا الأمل المتمثل بعقيدة المهدي المنتظر التي بقيت مترسخة في أذهان الشعب، هذا الإمام المصلح المولود ليلة النصف من شعبان والذي يحج كل عام مع المسلمين حسب الاعتقاد السائد، بل ذهب التثبيت بهذه الفكرة إلى اعتقاد الناس بخروج المهدي (ع) من هذه المنطقة،

فهذا الشاعر المغربي القديم يبشر بذلك فيقول:

وتطلع شمس الله من غرب أرضه	فلا توبة ترجى هناك لتائب
ويظهر من أبناء فاطمة أمرؤ	تقي نقى العرض جم الفوائد
سمي نبي الله وابن صفيه	وأكرم مولود وأشرف طالب
فيملا أرض الله عدلاً ورحمة	لأيام صدق طيبات المكاسب

تلك أذن لحظة عن قصة التشيع في المغرب الإسلامي بين الجذور الأولى التي تعود إلى صدر الإسلام أي بالضبط إلى عهد أئمة أهل البيت (ع) والرواسب الباقية إلى اليوم، إنها قصة عشق أيدي تخلله فترات من المد والجزء.. لكنه باق بقاء البحار والمحيطات.